الفصل الخامس

الإسلام والعلم:
خصومة مفتعلة!

القول بأن الدين يلغي العلم، أو العكس، هو سخرية نضحك بها على أنفسنا، أو يضحك بها غيرنا علينا، كي نتخلى عن أحدهما فنضيع.. ولم يسأل أحد من العبيد نفسه يومًا: ترى لمصلحة مَن نمارس هذا التطوع بالعمى والعَرَج؟!.

ـ د. عماد الدين خليل ـ

obeikandl.com

obeikandl.com

ذهب الدكتور طه حسين في كتابه « من بعيد » إلى أن العلم شيء والدين شيء آخر.. الأول متغير لا يثبت على قرار، والثاني ثابت مستقر.

العلم يقوم على العقل .. والدين يعتمد على الوجدان.

ويرى أن الخصومة بينهما قديمة منذ الإغريق، وأن الساسة هم وراء هذه الخصومة، التي لن تُحَلَّ إلا بالفصل بينهما لأن لكل منهما مجاله الخاص به، وإن كان الرجل يتمنى لو أتيح للإنسان أن يكون مؤمناً وعالمًا دون أن يغلو في التعصب للدين أو للعلم.. لكنه يشكك في قدرة الإنسان على الجمع بين هاتين القوتين فيطمئن إلى الدين دون أن ينكر العقل، ويطمئن إلى العقل دون أن يجحد الدين (انظر « من بعيد » ص ١٦، ١٧ + ٤٦ وما بعدها + ص ٢٠٦ – ٢٥٤).

والدكتور طه يعلق (ص ٤٨، ٤٩) على ما نشرته صحيفة « السياسة » للشيخ محمد بخيت من أن القرآن يثبت كروية الأرض ودورانها، فيؤكد أنه يمقت هذه المحاولات للربط بين العلم والقرآن، لأنها تفسد النصوص وتحملها ما لا تحتمل بالغلو في التأويل، ولأن العلم الذي يقول بدوران الأرض قد يقول غداً: إنها لا تدور!.

بل وينسب إلى المسلمين في العصور الأولى أنهم كانوا مجمعين على أن الأرض لا تدور، وعلى أن القرآن يقول: إن الأرض لا تدور!!!.

* * *

هذا هو المنطق الذي تعامل به معظم اللادينيين – من بعد – مع الإسلام، وهو منطق مليء بالثغرات والأخطاء المنهجية، التي نذكر منها:

١ ـ التعميم والإطلاق .. فليس للأديان موقف موحد معادٍ للعلم.. وليس كل ما يُنْسَب إلى الأديان يمثلها حقيقةً – لأنه كثيراً ما يكون موقف أتباعها

لاموقفها كنصوص! – كما أن كثيراً مما تُسْبَغُ عليه صفة «العلم» ليس حقائق علمية، فقد يكون نظرية أو مجرد افتراضات! وليس كل العلماء ممن ينكرون الأديان (لمن شاء التوسع في هذا أن يرجع إلى كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» وكتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» ومؤلفات الدكتور موريس بوكاي، وهي كتب مترجمة تنقض تعميم الدكتور طه عن عداوة العلماء للأديان!!).

٢ ـ ليس كل ما في العلم متغيراً، وليس كل ما في الدين ثابتاً– ونعني هنا بالدين: الإسلام تحديداً – فدوران الأرض الذي ذهب الدكتور إلى أنه ليس حقيقة ثابتة، هو اليوم حقيقة مقطوع بها وقد رآها رواد الفضاء رأي العين، وصوروها في أفلام متاحة للبشرية!.

٣ ـ أن الفصل المتعسف بين الدين والعلم يرجع إلى ظرف أوربي خاص، حيث كانت الكنيسة تحارب العلم وتحاكم العلماء، وتدعي احتكار الحقيقة!! وهذا مالم يحصل في التاريخ الإسلامي كله! وذلك التناقض المزعوم من إرث القرن التاسع عشر، وقد تبدل اليوم كثيراً (انظر: د. موريس بوكاي– ما أصل الإنسان؟ – ص ٢٣٤).

٤ ـ المسلمون في العصور الأولى لم يُجْمِعوا على أن الأرض ثابتة، ولا على أن القرآن يقول بعدم دورانها!! فكثير منهم لم يتطرقوا إلى المسألة أصلاً، وبعض المفسرين الذين اقتحموا هذا الجانب، إنما اعتمدوا الإسرائيليات!! وكان الموقف الشرعي الصحيح هو التوقف في هذه المسألة، لأنه لم يرد نص قطعي الدلالة يشهد لها، ولم يكن العلم البشري قد توصل إلى قولٍ فصلٍ في موضوع دوران الأرض أو ثباتها!.

وللعلم – عند المسلمين – طريقان لا ثالث لهما، هما: الوحي، وما يقطع به

العقل وخصوصًا ما تبرهن التجربة على صحته!.

وموضوع الأرض لم يكن فيه نقل شرعي قطعي يوجب الإيمان بثباتها، كما لم تكن أقوال المنسوبين إلى العلوم الطبيعية بخصوصها سوى تخمينات افتراضية!.

* * *

أما حسين أحمد أمين فيمضي إلى أبعد من موقف طه حسين.. فهو يدعونا إلى تغيير ثوابت الإسلام لمجاراة متغيرات العلم، ثم يهزأ في الوقت نفسه من أي تطابق بين حقيقة وردت في القرآن أو السنة، ومعطيات العلم الحديث!.

أي أن هذا المنهج الملتوي يضيف إلى أخطاء رؤية طه حسين، خطيئة مزرية.. فما يتصور هو أنه نصوص دينية تعارض العلم الحديث، يجب أن نتجاوزه لنواكب العلم، أما إذا كان التطابق بين الحقيقة الشرعية والحقيقة الكونية دامغًا بحيث لا يمكن التحايل عليه ولا ادعاء التنافر بينهما، فإن الحل هو السخرية!!.

أي أن العلم – كما يفهمه صاحبنا – هو أداةٌ لهدم ثوابت الدين فحسب، فإذا أدى العلم هذا الدور فعليه أن يتوارى، لئلا يشهد للدين!! مما يؤكد حقيقة مرمى هذا الرجل، ألا وهي: نسف الدين كله (*)! وهذا الموقف لا يعبر إلا عن الاحتقار للعلم والكيد الرخيص للإسلام، والازدراء المكشوف لعقول قرائه!.

* * *

(*) ولذلك فهو يرجح أنه لو أتيح للمعتزلة أن ينجحوا في نبذ السنة، لنتج عن ذلك أثر انحلالي يوهن من قوة الإسلام وتماسكه، مع جعل الإسلام أكثر قابلية للتأثر بما يطرأ عليه من خارجه من عوامل التعديل والإصلاح حتى يكون أكثر انطباقًا على نواميس العقل!! وأدنى إلى مقتضيات واحتياجات العصور المتتابعة (مجلة «الهلال» القاهرية أبريل «نيسان» ١٩٩٠م ص ٢١٧) وإذا كنا سنفند أكذوبته عن عدم انطباق الإسلام على نواميس العقل، مع أنها كفر بواح فإنه يكفينا هنا الإشارة إلى هدفه الحقيقي من هجومه على السنة النبوية ودفاعه المتهافت عن البدع – مع أنه يزعم في مواضع أخرى أنه يدعو إلى نبذ البدع والإبقاء على جوهر الدين الأصيل!!! – ومن مخاريق هذا الكذوب أنه زعم أن السنة كانت مدخلاً رئيسيًا للابتداع في الدين، فكيف تصبح –الآن– قيدًا على البدع؟!! وأترك للقارئ أن يحكم على التناقضات العجيبة التي يجمعها هذا الرجل في حقده على الإسلام حتى في بضعة سطور فحسب!!.

ومن المؤسف أن قلةً من المنسوبين إلى العلوم الشرعية، وقفت الموقف العلماني نفسه من علاقة الإسلام بالعلم الحديث، مع اختلاف في الأسباب والدوافع..

فهذه الفئة ترى أن الدين ثابت والعلم متغير، وأن أي ارتباط بين نتائجهما يعني تعريض قداسة النص الشرعي إلى خطر الشك! وهم صادقون مع أنفسهم – وإن كانوا مخطئين في تقديري – لكنهم ليسوا كاللادينيين الذين يرفعون هذا الشعار لهدف وضيع، هو تأكيد مزاعمهم عن تعارض الدين والعلم.

ومن الذرائع التي يتمسك بها بعض المنسوبين إلى العلوم الدينية للفصل بين حقائقهما، أن الدين حق من عند الله فلا يحتاج إلى شهادة البشر!.

وهذه مغالطة – أيضاً – فالآيات الكونية التي تؤكد ما جاء في القرآن أو السنة عنها، هي آيات من خلق الله – سبحانه –، وليس للبشر من دورٍ فيها سوى اكتشافها أو اكتشاف سنة الله فيها!.

ومعظم عناصر هذه الفئة لم تطلع على العلوم الحديثة إلا بالسماع، وهو سماعٌ مشوش منسوب إلى الإلحاد.. لاسيماً أن العلم الحديث غربي في الأصل، وهو ما ألقى بظلال من الشك على نتائجه في أذهان هذه الفئة!.

كما أنها – في بعض الأحيان – تسيء فهم الحقائق الشرعية، فتفرض على النصوص فهماً بشرياً محدوداً، وتتعصب له فتزعم أنه الفهم الوحيد الصحيح!.

* * *

وظهر على الساحة فريق ثالث تعسف في الربط بين العلم الحديث وحقائق القرآن والسنة، حتى لو كانت المعطيات العلمية مجرد افتراضات لم تثبت صحتها.

وربما كان حرص هؤلاء على إعادة الثقة بالإسلام إلى النفوس القلقة، هو ما

حفزهم على انتهاج هذا المسلك.. وبعضهم كان مدفوعًا لا شعورياً بانبهاره بالغرب الذي يقدم نفسه على أنه صاحب الحضارة الأخيرة الخالدة للبشرية كلها!!.

إزاء ذلك كله، يلحّ السؤال على ذهن كل منا عن الموقف السليم من طبيعة الصلة بين الإسلام والعلم الحديث!!.

والإجابة التي أقترحها تملي السير في ثلاثة محاور، هي:

الأول: موقف الإسلام من العلم.

الثاني: موقف العلم الحديث من الدين عمومًا.

الثالث: أين يلتقي الإسلام والعلم الحديث، وأين يفترقان؟

* * *

obeikandl.com

أولا: العلم في الإسلام

العلم البشري هو نتاج الإنسان باستخدام العقل أساسًا، وأدواته العديدة كالحواس الخمس وهي منافذه إلى العالم الخارجي، بالإضافة إلى القدرة على الإدراك والتصور والموازنة، التي أودعها الله – عز وجل– فيه، بالإضافة إلى البدهيات الأولية التي يدرك العقل أنها صحيحة دون الحاجة إلى إقامة البرهان عليها.

من هنا يتعين علينا أن نتعرف إلى موقف الإسلام من العقل قبل أن نعرض لموقف ديننا من العلم الذي هو أبرز نتاج لملكات الإنسان العقلية.

(أ) مكانة العقل:

قال – تعالى – في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

وقد أصاب أحد علماء السلف إذ فسَّر الآية الكريمة بقوله: إن العقل هو موضع هذا التكريم الإلهي.. أصاب لأن العقل هو الميزة الأمُّ التي تجعل الإنسان مخلوقًا أرقى من الحيوان والنبات والجماد.

وقد وردت مادة «عقل» ومشتقاتها في معرض الثناء دائمًا في القرآن الكريم، وكذلك ما يتعلق بـ«أولي الألباب» ومادة «تفكر» و«أولي النهى» و«التدبر» و«التذكر» ... وكثيرًا ما جاء الحث في القرآن على استعمال العقل، مقرونًا بذكر آيات الله في الكون والأنفس، التي تدعو إلى التفكر في ملكوت الله، وتُلْزِم العقل

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

– إذا تجرد عن الهوى وعن التقليد – أن يؤمن بخالق هذا الكون ومبدع ما فيه من مخلوقات.

ومن تلك الآيات الكثيرة، نذكر قوله – سبحانه –: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾[1].

وفي لفتة عظيمة إلى مصاير الأمم الجاحدة، جاء قول الله – عز وجل – عن عقوبة قوم لوط وضرورة الاتعاظ بها: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾[2].

وقد نعى الله – سبحانه – على المشركين وغيرهم من الضالين، عدم استخدام عقولهم استخداماً صحيحًا ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾[3].

كما عاب على المحرِّفين من أهل الكتاب خيانتهم أمانة العلم، فقال – سبحانه –: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (٧٥)﴾[4].

وتضمن القرآن حملة شديدة على المعوقات التي تمنع العقل من النظر الحر

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(٢) سورة الصافات: الآيات ١٣٣ – ١٣٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧١.
(٤) سورة البقرة: الآية ٧٥.

السليم، كاتباع الآباء والأجداد دون تمحيص، والخنوع للكبراء والأحبار والمتجبرين، وكالميل مع الهوي، قال – تعالى – : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾(٢).

وقال – عز من قائل – : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾(٣).

وقال – سبحانه – : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾(٤).

ولذلك فإن ضغط المتجبرين ليس عذراً للمستضعَفين الذين يتقاعسون عن اتباع الحق بحجة ضعفهم – باستثناء العاجزين فعلاً – : ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) ﴾(٥).

وهو – من باب الأَوْلى – ليس عذراً لمن يتبعون كبراءهم في الضلال : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٠.
(٣) سورة التوبة : الآية ٣١.
(٤) سورة البقرة: الآية ٨٧.
(٥) سورة النساء: الآيتان ٩٧ ، ٩٨.

إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) ﴾ (١).

وقال – تعالى – ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ (٢٣) ﴾ (٢).

وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾(٣).

وقال : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ (٤).

ولكي يتحقق هذا الهدف العظيم: الاستخدام الصحيح لنعمة الله الكبرى على الإنسان (أي: العقل) فإنه ليس – في الإسلام – وسيط بين العبد وربه.. وكل مخلوق يؤخذ من قوله ويُتْرك إلا الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه.

ولذلك فإنه يحظر التقليد على المجتهد، بل إن إمامًا مثل ابن حزم يحرم التقليد في الدين جذريًا!.

كما أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها! والعقل هو شرط التكليف شرعًا، فالمجنون والصبي – الذي لم ينضج عقله بعد! – غير مكلفين!!

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٦٦، ٦٧.
(٢) سورة النجم: الآية ٢٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٣٥.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

ولذلك فإن التكليف حسب الطاقة ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٨٦)﴾[١].

والتفاضل حسب التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١٣)﴾[٢].

فليس التفاضل بحسب اللون ولا العنصر ولا الجنس (ذكر أو أنثى)، مصداقاً لحديث المصطفى «**لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أصفر إلا بتقوى الله والعمل الصالح**» أو كما قال ﷺ.

والمسؤولية فردية ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (١٦٤)﴾[٣].

ولذلك فلا طاعة مطلقة إلا لله، أما المخلوق فطاعته مقيدة بالشرع فحسب «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**» كما جاء في السنة.

ومع كل الوضوح في الحق، فإنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦)﴾[٤].

فما الذي يتعارض في الإسلام مع نواميس العقل، ذلك التعارض الذي زعمه «الأمين» دون أن يقدم ولو شاهداً واحداً مقبولاً؟!! .. !!.

إن الإسلام – عقيدة وشريعةً، أحكاماً وآداباً وقِيَماً – ليس فيه ما يصطدم والعقل السليم، أما من يتخذ من هواه إلهًا – على علم أو بدون علم، والقرآن ذكر الصنفين!! – أما من يفعل ذلك ويزعم أن بين العقل والإسلام عدم انسجام – فكيف بأي خصومة –، فإنه في الحقيقة ينطق باسم هواه بعد أن يغلفه – زوراً وبهتاناً –

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٣) سور الأنعام: ١٦٤، الإسراء ١٥، فاطر ١٨، الزمر ٧.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

باسم العقل، والعقل بريء من تخرصاته.

إن الإسلام – بالإضافة إلى التقائه بأحكام العقل السليم المبرأ من الأهواء والآفات والمعوقات – يعلّم المسلم مبادئ التفكير الصحيح.

فهو يعلمنا العدل وقول الحق بصرف النظر عن العواطف ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (١).

ومن ذلك التعليم الجليل، قوله – تعالى – عن السماء والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾﴾ (٢).

ومن ذلك عدم التعميم، فعلى الرغم من أن أهل الكتاب مشركون ويتبعون ديانات نسخها الإسلام بعد أن حرَّفوها، فإن القرآن يعلمنا عدم التعميم تجاههم..

قال – تعالى – : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (٣).

هذا في حين أن الغربيين الذين يزعمون أنهم يعبدون العقل ويقدسون النزاهة، كتبوا وقالوا من الافتراءات والأكاذيب البجحة والتعميمات الجائرة عن ديننا ونبينا وتاريخنا، ما خجل منه عقلاؤهم!! فمن الذي يتبع العقل فعلاً، ومن الذي يُدَثِّرُ

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٧٥.

أهواءه ومطامعه بالعقل؟!.

ونقول مع الأستاذ عباس محمود العقاد: إن من مزايا القرآن الكثيرة: التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف.

ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضًا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئًا من الزراية بالعقل أو التحذير منه.

لكن القرآن لا يذكر العقل إلا في مقام التقدير، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة... وهي تشمل وظائف العقل فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة.

وصفوة القول: إن الإسلام لا يعذر العقل الذي ينزل عن حق الإنسان رهبة للقوة أو استسلامًا للخديعة... (العقاد – التفكير فريضة إسلامية ص ٣ – ٢٤).

ضوابط العقل:

العقل في الإسلام – كما مر بنا – موضع التكريم والتقدير، وهو السبيل الصحيح للاقتناع بالإسلام نفسه.. ولذلك فليس في الإسلام أي تهوين من شأن العقل.

غير أن هناك بونًا شاسعًا بين تبجيل العقل – المتجرد عن الأهواء –، وعبادة العقل التي شاعت في الغرب في العصر الحديث.. وفضلاً عن هذا الغلو اللاعقلاني،

فإن من المزري أن الغربيين عبَّروا عن تقديسهم للعقل بصنم لـ«آلهة العقل»، في هيئة امرأة عارية تمامًا!! فما أقبح عبادة العقل – وأي مخلوق – عن طريق وثن، يمثل امرأة بلا حياء!! فأي عقل في هذا الثالوث الفاجر؟.

إن العبادة – كما يقر بها كل عقل نقي من التلوث – لا تكون إلا لله – عز وجل – !! إن العقل مخلوق، والعبودية لا تكون لغير الخالق.

وما عبادة العقل إلا صورة أخرى من صور الشرك.

وليست قيمة العقل مسوغًا لعبادته، فهي تشبه عبادة مخلوقين مكرمين فالمسيح – عليه السلام – نبي كريم وقد عبده ويعبده كثير من المشركين، والملائكة كرام عند الله وقد عبدهم بعض العرب قبل الإسلام..

لذلك فإن رَفْضَنَا – نحن المسلمين – لعبادة العقل لا يعني الغض من قيمته، فنحن نرفض عبادة الملائكة وعيسى ومحمد ﷺ – هذا لو وجد من يعبد نبينا! – ودون أي انتقاص من مكانتهم العظيمة.

كما أن كرامة العقل لا تعني أنه معصوم من الخطأ العفوي، ولا من اتباع الهوى أو الظن، ولا من التأثر بالظروف المحيطة والأحكام المسبقة.

وإن الخطر على سلامة العقل يزداد كلما ابتعد مجال عمله عن المعطيات الحسية وعن ميدان التجريب والأحكام العامة.

فالبشر يتفقون – مهما تباينت البيئات والظروف – في ميادين الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك... لكنهم يختلفون في المجالات الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع... وتتضاعف احتمالات الانحراف حينما يتصدى العقل الإنساني للتفاصيل والكيفيات في عالم الغيب كقضايا الألوهية والملائكة والجن واليوم الآخر..

فهذه سبيلها الوحي الصحيح.. والعقل السليم لا يُطالَب بالإيمان بها إلا بعد أن تقوم عليه الحجة في أمور أساسية قبلها، كتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بأن القرآن كلام الله – عز وجل – وأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد بلّغ الرسالة (قرآناً وسنةً) وأدى الأمانة ونصح الأمة.

وليس يعني هذا أن العاقل عاجز عن الإيمان وفق منطق صحيح بوجود الملائكة وعالم الجن والجنة والنار– بالإضافة إلى ورودها في النص الصحيح – فالعقل يتمكن من الحكم عليها مبدئياً بأنها ممكنة وغير مستحيلة، ولذلك فهو يصدق ما جاء به الوحي مادام ممكناً وغير مستحيل.. لكن العقل يتخبط إذا خاض في تفاصيلها وماهياتها.

والأدلة على اضطراب العقل في هذا المجال، أشهر من أن تُعَرف.. فهي تملأ كتب التاريخ– وخصوصاً تاريخ الفلسفة –، كما نعرف عشرات الشواهد من واقعنا المعاصر.

فلكل فيلسوف من الإغريق وتلامذتهم المسلمين ثم فلاسفة الغرب في العصور الوسطى والحديثة، مفهوم عن الألوهية يصطدم بمفاهيم نظرائه الآخرين، بالإضافة إلى اختلاط الحق بالباطل في تصور الفيلسوف الواحد نفسه.. وكما يقول أحمد أمين (والد حسين!)، فإن فلاسفة اليونان تأثروا بالوثنية في بيئتهم، وفلاسفة اليهود تأثروا باليهودية، وفلاسفة النصارى بالنصرانية، وفلاسفة المسلمين بالإسلام!! (ضحى الإسلام ٣/١٨).

أما المعتزلة الذين يفترض فيهم أن تكون خلافاتهم أقل من الفلاسفة، لأن المعتزلة يؤمنون بأن القرآن كلام الله!. فقد كفَّر بعضهم بعضًا، نظراً لتنافر مفاهيمهم

عن عالم الغيب الذي أصروا على أن يحكموا عليه بقياسه على الواقع المحسوس!. ناهيك عن اصطدام كثير من مبادئهم بالنصوص القرآنية المُحْكَمة .. وهذا تناقض إضافي فإن العقل الذي يؤمن بصحة النص القرآني لا يسيغ مخالفة القطعي في الدلالة منه!. فهم – وهذا مجرد مثال فحسب – يوجبون على الله – تعالى عما يقولون– عدم المغفرة للعاصي، مع علمهم بأن الله – سبحانه – قال في كتابه العزيز:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ ﴾[١].

وهذا التطاول السفيه لا يتعارض مع النص القرآني الصريح فحسب، بل ويتناقض مع العقل نفسه.. فالعقل يقر بأن مشيئة الخالق مطلقة لأنه – سبحانه – يفعل ما يشاء كيف يشاء، في حين أن مشيئة المخلوق محدودة. وإذا كان عفو الإنسان عن إنسان ظَلَمَهُ ينم عن نبل وكرم أخلاق، فكيف يجعله هؤلاء السفهاء أمرًا سيئًا من خالق السموات والأرض ومن فيهن – سبحانه – ؟!.

إن أحمد أمين – والد «الأمين» – وهو من محبي المعتزلة، يعترف بأن نقطة ضعف المعتزلة هي إفراطهم في قياس الغائب على الشاهد (ضحى الإسلام ٣ / ٦٩، وظهر الإسلام ٤ / ٧٦، ٧٧).

وصدق أحمد أمين إذ قال: إن أسلوب القرآن يناسب العالِم والعامي، العامة والخاصة... ولذلك فهو يمتاز عن منهج الفلاسفة وعن منهج علماء الكلام، وهو يسمي منهج القرآن في الخطاب وفي عرض العقائد الغيبية بأنه «المنهج الفطري» (ضحى الإسلام ٣ / ١١).

من هنا نفهم سر رفض السلف الجدال في الآيات المشتبهات، وندرك عمق

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

الإمام مالك الذي سئل عن قوله – تعالى – : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾[١]، فقال – رحمه الله – الاستواء معلوم، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة!.

نعم: الكيف مجهول، لأن الله – عز وجل – ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾[٢]..

ولأنه – سبحانه – ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣)﴾[٣].

ولقد كان «سبنسر» صادقاً في قوله : إن عجز العقل عن تصور الموجود المطلق، هو نفسه ما يوجب علينا التسليم بوجوده!!.

ويكفينا من العصر الحديث شاهد واحد، هو اختلاف العلماء الغربيين حول أسبقية توحيد الله أو الوثنية في التاريخ الإنساني.. فقد ذهب إلى الأولى كثيرون منهم: لانج، وشريدر وشميدت. أما أسطورة أن الوثنية هي الأصل فقد تبناها كل من تيلور، وفريزر، ودوركايم!! (دراز – الدين ص ١٠٧).

فإذا لم يتفق الفريقان – وكلاهما يدعي الاعتماد على العقل! – في مسألة حدثت على الأرض، فكيف يقتحم العقل عالَم الغيب الذي لا سبيل إليه سوى النص الصحيح، الذي يثبت بالنقل الموثوق به، ويمكن إخضاعه – لمزيد من الاستيقان – إلى اختبار عقلي وحيد هو أن يكون ممكنًا لا مستحيلاً!!.

كما أنه ليس من انتقاص العقل في شيء أن يعجز عن فهم الحكمة في الأمور التعبدية عمومًا .. لأن العبادة المطلقة لله – كما قلنا – وسبيلها النص الصحيح..

---

(١) سورة طه: الآية ٥.
(٢) سورة الشورى: الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام :الآية ١٠٣.

فالعقل لا يستطيع – مثلاً – تعليل عدد الصلوات الخمس ولا عدد ركعات كل صلاة.. ولا الوضوء .. وليس ما نلمسه من فوائد العبادات أحيانًا دليلاً كافيًا على أن هذا هو مراد الله منها.. إن الوضوء نظافة، لكن أي نظافة متجردة عن النية وعن الكيفية الواردة في النصوص الشرعية ليست وضوءًا!!.

ولو كانت النظافة – وحدها – هي المراد من الوضوء، لما أمرنا ربنا بالتيمم بالتراب عند العجز عن استعمال الماء للوضوء، سواء بسبب فقدان الماء أو خشية الضرر منه.

ونحن نلمس في الصوم فوائد صحية وأثبت الطب الحديث كثيراً منها، لكنها ليست الحكمة من الصوم .. لأنها قد تتحقق بدون الصوم!!.

وإني أرى – بخلاف الوهم الشائع – أن تقييد العقائد بالنص وحده هو حماية للأمة من التجار والمحرفين والجهلة والمبطلين .. ولولا هذا الضابط العظيم، لأصبح الإسلام أديانًا عديدة متنافرة.

* * *

ميادين العقل

ربما يفهم أهل الأهواء مما سبق أنني مع القائلين بتجميد العقل أو بازدرائه.. وهؤلاء لا يعنونني في شيء، لأنني أخاطب العقلاء الذين لا يؤلهون عقولهم ولا يحتقرونها، بل يحترمونها ولذلك يفهمون الكلام كما هو دون تزيد ولا بتر ولا تحريف.

ومن حق العقلاء أن يسألوا : فما دور العقل إذًا؟

في حدود اطلاعي أجيب بأن العقل بعد أن يثبت له الإيمان بالله وبالقرآن

وبرسالة محمد ﷺ تظل أمامه ميادين منبسطة في مجالات الحياة المختلفة القائمة على عمارة الكون وفقًا لمنهج الله.

يظل أمامه كثير من آيات القرآن الظنية الدلالة..

وكثير من الأحاديث النبوية الظنية الدلالة..

وباب الاجتهاد مفتوح لأهله – في غير الثوابت – وما أكثر القضايا الاجتهادية في الإسلام .. وكل علم نافع هو مجال رحب أمام العقل المسلم، كالفيزياء والكيمياء والطب والهندسة والفلك وعلم طبقات الأرض (جيولوجيا) و... إلخ.

وكل ارتقاء بمستوى الحياة هو عمل مأجور إذا أراد به صاحبه وجه الله.

وإذا كان المجال أمام العقل منضبطًا في أمور العقيدة والتعبد المحض، فإنه واسع جدًا في مجالات المعاملات..

لاسيما أن الأصل في العبادات الحظر (المنع).

والأصل في المعاملات الإباحة.

فكل جديد في شؤون الحياة والتعامل بين الناس مباحٌ إذا لم يصطدم بنص شرعي صحيح.

التطرف المضاد:

لا تتجلى لنا عظمة الإسلام في موقفه المتفرد من العقل، إلا إذا ألقينا نظرة – ولو عجلى – على اضطراب الموقف الغربي من العقل وتباينه الحاد بين فترة وأخرى.. ففي حين كان أي بحث علمي – إن صحت التسمية – في العصور الوسطى في الغرب يجب ألاّ يأتي بجديد على ما في «الكتاب المقدس» (وهذا لا نظير له في الإسلام

البتة!)، فإن الأوربيين عبدوا العقل في عصر «النهضة». غير أنهم مالبثوا أن ازدروا العقل في القرن التاسع عشر باسم العلم، حيث روّجوا للجبريات المختلفة، كالجبرية المادية وإنكار إرادة الإنسان المستقلة وهو إنكار ينافي قيمة العقل ومسؤولية الإنسان.. ولذلك كثر الحديث عن تفاهة الإنسان وهامشيته – وخصوصاً عند فرويد – حيث يسيطر الجنس واللاوعي ويخضع العقل للغريزة، وكذلك في المذهب السلوكي (أحد مذاهب علم النفس) الذي يلغي قيمة العقل تماماً (انظر: العلم في منظوره الجديد – أغروس وستانسيو – ترجمة د. كمال خلايلي ص ١٠، ٤١، ٥٩).

كما ظهرت الوجودية الملحدة التي زعمت أن العالَم خالٍ من الحكمة والمعنى (أي: أن الحياة عبث ولا حكمة من ورائها!!) (المرجع السابق ص ١٠٦).

ثم بدأ ظهور تيار جديد في الغرب، ففي الخمسينيات نشأ «علم النفس الإنساني» ردًّا على ازدراء التحليل النفسي والمذهب السلوكي للعقل وعلى تجريدهما الإنسان من إنسانيته.

أما العلم الجديد فيقوم على أولوية العقل وعدم قابليته للحصر في الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة، وعلى أن الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار!!.

وما كان لعلم النفس الإنساني الجديد هذا أن ينشأ لولا سقوط نظرية الحتمية المادية (المرجع السابق ص ١٠، ١٥).

هذا دون أن ننسى ما وجهه (كانط وراسل واستيوارت مل) وغيرهم من نسف للمنطق الصوري الذي بلغ ذروته على يد أرسطو، وكان يعد ميزان العقل!!

علماً بأن المتغربين من أنصاف المثقفين وأرباعهم الذين يجهلون هذه النقلة الجوهرية، يندون بعلماء المسلمين الذين هاجموا منطق أرسطو منذ قرون، مع أن الغربيين الذين نقضوا هذا المنطق اعتمدوا كثيراً من حجج أولئك العلماء المسلمين (أجاد الدكتور النشار - رحمه الله - في بحث هذه القضية في كتابه القيّم «مناهج البحث عند مفكري الإسلام» انظر - خصوصًا - ص ١١٣ وما بعدها، وكذلك ص ٢١٥).

(ب) مكانة العلم:

العلم الإنساني - إذاً - هو ثمرة العقل في أرقى نشاطاته.

ومن المنطقي جداً أن يحظى العلم في الإسلام بمنزلة رفيعة، انطلاقًا من القيمة التي يتمتع بها العقل.

ولذلك فإن العلم الحق هو موضع ثقة وتقدير في القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، فلا إدانة إلا للجهل أو للأهواء التي تزيف حقائق العلم أو تطمسها لشهوة أو مصلحة خاصة على حساب الحق.. ولا تقريع إلا لمن يتبع الظن وهو يحسبه يقينًا، أو يصوره على أنه صواب مقطوع به!!.

وتكررت مادة «علم» ومشتقاتها ٧٧٥ مرة في كتاب الله، وجاءت كلها في محل التبجيل والإطراء على العلم وأهله، كما تضمنت لومًا وتعنيفًا للجاهلين وأهل الأهواء.. قال - تعالى - ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ⑪﴾[1].

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

وقال – سبحانه – ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④﴾ (١).

ومن المعلوم لكل مسلم أن أول ما نزل من القرآن، قول الله – تبارك وتعالى:
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ (٢).

إن القيمة الكبرى للعلم في الإسلام، تتجلى في هذا الأمر الكريم بالقراءة وتقدير الكتابة في أول خطوة من خطوات الرسالة الخاتمة، التي بدأت في أمة أمية ندر فيها القارئون والكاتبون!! مع ذكر نعمة الله العظمى على البشر أن هيأ لهم السبل ليعلموا ما كانوا يجهلون فالإنسان في المجتمعات البدائية يكاد يكون جاهلاً جهلاً مطبقًا .. ثم ازدادت معارف البشر ونمت، بما أودعه الخالق – سبحانه – فيهم من حواس تتحسس المحيط الخارجي، ومن عقول قادرة على الغربلة والموازنة.

ولأن العلم ذو مكانة عالية، فإنه كان الركن الأساسي في مهمة الأنبياء والمرسلين، فالنبي ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ (٣).

وهذا ما جعل نبيًا من أولي العزم من الرسل هو موسى (عليه الصلاة والسلام) لا يستنكف أن يطلب العلم على يد عبد صالح طلبًا مُلحًّا: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ

(١) سورة الرحمن: الآيات ١ – ٤.
(٢) سورة العلق :الآيات ١ – ٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٥١.

﴿أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[١]. فلا غرو أن يخاطب رب العالمين نبيه محمداً ﷺ بقوله – سبحانه – ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[٢].

والمسلم مأمور بأن يتحرى الحق فلا يقول بغير علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴿٣٦﴾﴾[٣]. ولذلك فلا يجوز الجدال – وخصوصًا في الدين – بغير علم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[٤].

ولذلك يقع الضلال والإضلال باتباع الهوى بعلم يتم تحريفه أو حجبه تارة، وبغير علم تارة أخرى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١١٩﴾﴾[٥].

وهؤلاء سيحملون إثم ضلالهم وإثم إضلالهم غيرهم دون أن ينقص من وزر أتباعهم الذين عطلوا عقولهم واتبعوهم على غير بصيرة: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٦]... ويدخل في ذلك الظن ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[٧]، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٢٩﴾﴾[٨].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦٦.
(٢) سورة طه: الآية ١١٤.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.
(٤) سورة لقمان: الآية ٢٠.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٩.
(٦) سورة النحل: الآية ٢٥.
(٧) سورة الجاثية: الآية ٢٤.
(٨) سورة الروم: الآية ٢٩.

والشيطان يسعى لإيقاع الإنسان في هوة القول بغير علم: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾(١).

أما الفريق الآخر فهم ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٢٣)﴾(٢)

فالعلم – بدون تقوى – ليس حصانة كافية ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩)﴾(٣).. واليهود ممن ضلوا على علم، إذ كان فريق منهم: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾(٤). وكثير منهم اتخذوا العلم – وهو عهد إلهي – مطية للحصول على منافع عاجلة على حساب الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ (٧٧)﴾(٥).

وليس أدل على هذا من أن البشرية تعاني اليوم من انفصال العلم عن القيم العليا، ولذلك فقد استخدم العلم لابتكار أسلحة الإبادة الشاملة وللتفنن في التعذيب الإنساني أيضاً!

والعلم ليس كله نافعًا، فبعض العلوم نافعة وبعضها ضارة كالسحر مثلاً: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ (١٠٢)﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٩.
(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٣.
(٣) سورة الجاثية: الآية ٩.
(٤) سرة البقرة: الآية ٧٥
(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٧.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

والعلم المطلوب شرعًا هو العلم النافع فحسب! والعالِم الحق لا ينتابه الغرور، ولا ادعاء الإحاطة، لأنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ (١).

وليس العالِم الفرد وحده هو المدعوَّ إلى التواضع، فعلى البشرية كلها أن تدرك عجزها عن معرفة تفاصيل الغيوب حتى لو كانت وثيقة الاتصال بنا كأرواحنا مثلاً ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ (٢).. ولذلك فإن هذه الأمور نعلمها عن طريق الوحي المنقول نقلاً صحيحًا، وفي حدود ما بلغنا، لأن أي خروج عن ذلك مؤداه إلى الظنون المتصادمة ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾ (٣)، فلا سبيل إلى اليقين خارج منطقة اليقين المنقولة إلينا وفي حدود النقل.. أما الذي يعلم كل شيء فهو رب العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)﴾ (٤).

ومن أقرب الأمثلة عجز أي منا عن معرفة نوايا الآخرين الحقيقية معرفة يقينية جازمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣)﴾ (٥).

وكل ما يمكن لنا في ذلك هو الظن، لكن ﴿الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٣٦)﴾ (٦)، و هو ما يوقع في الإثم – غالبًا – ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (١٢)﴾ (٧).

* * *

(١) سورة يوسف: الآية ٧٦.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.
(٣) سورة التكاثر: الآية ٥.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٢.
(٥) سورة لقمان: الآية ٢٣.
(٦) سورة يونس: الآية ٣٦.
(٧) سورة الحجرات: الآية ١٢

في السنة النبوية:

ونعني بها ما ثبت أن النبي ﷺ قد قاله أو فعله أو أقرَّه...

وما ورد في السنة القولية والعملية بشأن العلم لا يخرج عما ورد في القرآن.. وليس ذلك بدعًا فالسنة – عمومًا – تؤكد ما في الكتاب أو تبينه أو تزيد عليه بما يتفق معه فمصدرهما واحد هو الله – عز وجل – وواسطتهما واحدة هي الوحي.. ومن ذلك ما رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) من أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**» [رواه مسلم].

وعن أبي الدرداء (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع، وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب... الحديث**» [رواه أبو داود والترمذي].

وكما نهى القرآن عن كتمان العلم، نهى النبي ﷺ عن هذه الجريمة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**» [رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن].

على أن طلب العلم يجب أن يراد به وجه الله فلا يقصد به نيل الشهوة أو المال، وذلك مصداقًا لقوله ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يُبْتَغى به وجه الله – عز وجل – لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**» يعني: ريحها. [رواه أبو داود بإسناد صحيح].

وإن من كرم الله – سبحانه – أنه يأجر المسلم حتى بعد أن يرحل عن دنيانا في أحوال ثلاث، أحدها العلم. قال رسول الله ﷺ: « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم يُنْتَفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له** » [رواه مسلم].

علوم الدين والدنيا:

قلنا في فصل سابق: إنه لا صراع في الإسلام بين الدين والدنيا، فالدين هو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة معًا.

ولذلك فكل علم نافع هو علم يُطْلَبُ شرعًا.. ومن حاول قصر مصطلح « العلم » الوارد في الكتاب والسنة على العلوم الشرعية، فإن الصواب لم يحالفه، لأنه يقيد مطلقًا، ويخصص عامًا من عنده بدون دليل شرعي!.

وحين يكون المراد من « العلم » – في نص ما – هو العلوم الدينية فإن النص يوضح ذلك بجلاء.. فالرسول ﷺ قال: « **من يرد الله به خيراً يُفقّهه في الدين** » [متفق عليه].

وعلوم الدين ليست حفظ النصوص فحسب، فالفقه هو تدبر النصوص واستنباط الأحكام منها، وفي ذلك روى عبد الله بن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « **نضَّر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمعه، فُربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع** » [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح].

فالذي يبلّغ النصوص عالِمٌ في مجاله، ولا يطلب منه سوى الأمانة في التبليغ دون زيادة ولا نقصان.

أما أن دلالة العلم في النصوص الشرعية عامة، تشمل كل علم نافع، فيشهد لها ما يلي:

● قول الله – عز وجل – عن داود (عليه الصلاة والسلام): ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (١).

● وقوله – سبحانه – ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ (٢).. فهذا المُعَمِّر الذي يصاب بالخرف يصبح جاهلاً كل ما كان يعلمه، سواء أكان ما يعلمه من أمور الدين أو سواها.

● وقوله – عز من قائل –: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (٣).

فالنص على خشية العلماء لله، ورد بعد عرض عدد من آيات الله في الكون والكائنات الحية، وهو يؤكد شمول مصطلح «العلم» للعلوم الموصوفة – لضرورة فنية فحسب – بأنها دينية بالإضافة إلى العلوم الأخرى النافعة.

● قوله – تعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ (٤)، فكل علم يؤدي إلى قوة الأمة (القوة بمفهوم حضاري شامل) يصبح واجبًا على الأمة أن تُعِدَّ له ما يكفي لتحقيقه!.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.
(٢) سورة النحل: الآية ٧٠.
(٣) سورة فاطر: الآيتان ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

● الحديث الذي رواه أبو أُمامة (رضي الله عنه) من أن رسول الله ﷺ قال: « **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم** » **ثم قال رسول الله ﷺ** : « **إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملةَ في جُحْرها وحتى الحوتَ ليصلُّون على معلِّمي الناس الخيرَ** » [رواه الترمذي وقال حديث حسنٌ].

فكل خير هو علم .. وكل من يعلمه الناس يحظى بالشرف الرفيع الذي جاء في الحديث.

● عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : « **الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها** » [أخرجه الترمذي].

● أن النبي ﷺ أرسل الصحابيين « عروة بن مسعود » و« غيلان بن سلمة » إلى جرش ليتعلما صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات (انظر: الإصابة ٤ / ٤٩٢ و ٥ / ٣٣٠ والتراتيب الإدارية للكتاني ١ / ٣٧٥ وموقف الإسلام والكنيسة من العلم للمشوخي ص ٢٧، ٢٨).

● ما دلت عليه أحاديث صحاح من أن المباح يصبح طاعةً يثاب فاعلها إذا قصد به وجه الله (كجماع الزوجة!).

● ما ورد من إشارات علمية معجزة في القرآن والسنة (وسيأتي بحثها في موضع آخر من هذا الفصل).

تطبيقات المسلمين:

١ ـ في الفقه الإسلامي:

إن مقاصد الشارع في خلقه – كما توصل إليها الفقهاء من استقراء شامل للنصوص الثابتة – تتلخص في حفظ خمسة أمور هي: الدين – النفس – العقل – النسل – المال. وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة أو بعضها فهو مصلحة، وكل ما يفوّتها كلها أو بعضها فهو مفسدة.

وتتدرج وسائل حفظ هذه الأصول في ثلاث مراحل حسب أهميتها، وهي – كما أطلق عليها علماء الأصول – الضروريات والحاجيات والتحسينيات.

فالضروريات هي ما لابد منه لحفظ هذه الأمور الخمسة، والحاجيات هي التي قد تتحقق من دونها الأمور الخمسة ولكن مع الضيق، فَشُرِعَتْ لحاجة الناس إلى رفع الضيق عن أنفسهم كي لا يقعوا في حرج قد يفوّت عليهم المطلوب.

وأما التحسينيات فإن تركها لا يؤدي إلى ضيق ولكن مراعاتها تتفق مع مبدأ الأخذ بما يليق وتجنب ما لا يليق، وهي متمشية مع مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

(انظر: د. محمد سعيد رمضان البوطي – ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ١١٩ – ١٢٨، والإمام الشاطبي – الموافقات ٣ / ٥ وما بعدها).

وإن الأئمة الذين أخذوا بالمصالح المرسلة التي لم يرد دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها، اشترطوا أن تكون مصلحة حقيقية متفقة مع مقاصد الشارع، وأن تكون عامة ليست مصلحة لشخص (د. عبد العزيز بن عبد الرحمن بن علي الربيعة – أدلة

التشريع المختلف في الاحتجاج بها ص ٢٢٦ وما بعدها).

وقد أشار الدكتور البوطي إلى خمسة ضوابط للمصالح المرسلة هي :

– اندراجها في مقاصد الشارع .

– عدم معارضتها للكتاب .

– عدم معارضتها للسنة .

– عدم معارضتها للقياس .

– عدم تفويتها مصلحة أهم منها .

من مجمل هذا نخلص إلى أن أي علم نافع، هو فرض كفاية على الأمة، فإذا لم ينهض له العدد الكافي بالصورة المنشودة فإن الأمة كلها تأثم!! .

والمسلم الذي يتعلم علمًا نافعًا وهو يقصد به وجه الله، ويسعى إلى عمارة الكون وفقًا لمنهج الله، ونشر الخير في أرضه، ونفع الأمة والعمل من أجل كرامتها ورفاهيتها، فإنه مأجور – إن شاء الله – .

وأجد من المهم أن أحذِّر من وهمٍ شائع في هذه المسألة، فالعلم الشرعي الذي هو فرض عين على كل مسلم (ذكراً كان أو أنثى)، لا يتعدى أركان الإيمان وأركان الإسلام، وما لا تصح العبادة إلا به – وهو غير واسع– .

أما التخصص في علوم الدين كعلوم القرآن وعلوم الحديث النبوي والفقه . . . ، فهو فرض كفاية مثله في ذلك مثل العلوم العسكرية ومثل الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء . . . إلخ .

٢ ـ تطبيقات تاريخية :

لقد فهم المسلمون في العصور الأولى مسألة « العلم » فهمًا حضاريًا مميزًا . . ولذلك قدموا إلى البشرية إنجازات رائعة في ميادين الطب والهندسة والرياضيات والفلك، فكانت – بشهادة المنصفين حقًا من الغربيين – أساسًا للنهضة الأوربية في العصور الحديثة.

ولذلك عبر أناتول فرانس عن حزنه لخسارة المسلمين في موقعة « بلاط الشهداء » لأن معنى خسارتهم أدى إلى أن تستمر أوربا في ظلماتها بضعة قرون أخرى.

ويمكن لمن رغب في الاطلاع على عطاءات المسلمين في هذه العلوم أن يرجع إلى « حضارة العرب » لغوستاف لوبون، و« شمس العرب تسطع على الغرب » لزيغريد هونكه، و« تاريخ العلوم عند العرب » لعمر فروخ و« من روائع حضارتنا » لمصطفى السباعي.

ويكفي في هذه العجالة أن أشير إلى ما هو أهم من النتائج العظيمة التي توصل إليها أجدادنا الأبرار، وأعني بذلك المنهج التجريبي الذي كان جنينًا مجهضًا عند الإغريق، تقتله السفسطة والبحوث اللفظية . .

يقول د. النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) : إن المسلمين أقاموا قياسهم الأصولي على الفكرتين اللتين أقام « جون استيورات مل » الاستقراء العلمي الحديث عليها، وهما قانون العِلّية وقانون الاطّراد (ص ١١٣ وما بعدها).

كما سبقوا فلاسفة العصر الحديث في التوصل إلى أن قوانين الفكر الثلاثة التي وضعها أرسطو ليست بدهيات، وإنما هي مُسَلَّمات تُسْتَمَدُّ من الخبرة والتجربة.

وسبقوا « بيكون » في جعل التجربة أو الاستقراء أساسًا للمعرفة وفي جعلهم

فكرة الكم أساسًا لكل عملية فكرية (المرجع السابق ص ٢١٥، ص ٢٢٦وما بعدها، ص ٢٧١).

ويفصل د. النشار القول في خصائص مناهج البحث لدى العلماء المسلمين في مجالات الكيمياء والطبيعة والرياضيات (ص ٣٢٧ – ٣٥٧). وينتهي إلى أن قيمة جهدهم تتجلى في تجاوزهم جزئيات الهنود وإغراق الإغريق في القضايا النظرية، إلى تأسيس المنهج الاستقرائي التجريبي. ويثبت أن مكانة أرسطو التنظيرية كانت أهم عائق أمام الطبيب الإغريقي الشهير «جالينوس» في محاولاته تأسيس طبه على التجريب بصورة شاملة.

ضوابط لا قيود:

لهذا كله فليس هناك أي مانع من الدين يمنع المسلمين اليوم من تعلم العلوم الحديثة وإتقان الصناعات الحيوية.

بل إن الأمة مقصِّرة لأن تلك الأمور فروض كفاية، والأمة – في حدود اطلاعي – لم تحقق كفايتها في كثير من جوانبها المهمة.

إنما لا يعني ذلك الفوضى، ولا مزج الحق بالباطل.. صحيح أنه لا قيود على العلم في الإسلام، لكن العلم لكي يكون صحيحًا ينبغي إحاطته بضمانات وضوابط شرعية.. أقترح أن تتلخص في التالي:

١ ـ التركيز على الهدف الأساسي: عمارة الكون وفقًا لمنهج الله المبيَّن في الكتاب والسنة.

٢ ـ الاقتصار على العلوم النافعة التي لا تختلف بين بيئة وأخرى كالرياضيات والطب والهندسة والفلك.

٣ ـ ليس هناك ما يمنع – بل إن من الضروري – أن نطلع على إنتاج الأمم الأخرى في الإنسانيات، لنقتبس منها أي إضافة صحيحة في المنهج وما يَسْلم من النتائج مع الابتعاد عن الأباطيل الغربية التي تلبس ثياب العلم، وهي تقوم على تجزئة الإنسان أو تهميش دوره أو تنتكس به إلى الحيوانية.. على أن نبلور مناهجنا الخاصة في الإنسانيات وفقًا لهويتنا الإسلامية المميزة.

٤ ـ ينبغي أن نعيد الصلة المبتورة في الغرب بين العلم والقيم العليا.. فالعلم يجب أن يكون في خدمة الإنسانية وسعادتها، لا أن يكون معول هدم لمكارم الأخلاق، أو عنصر تهديد لأمنها وسلامها.. فإذا راجع الغرب نفسه وتراجع عن مخططاته للهيمنة والنهب والإيذاء، واتفقت دول العالم على منع أسلحة الدمار الشامل، فإن على المسلمين الامتناع عن التفكير في إنتاجها.. وإلا فإن من المفروض عليهم أن يمتلكوا ناصيتها، لئلا يظل مصيرهم مهددًا من قوى البغي والعدوان.

٥ ـ داخليًا : يجب المواءمة بين العلم وخطط التنمية التي تستند إلى الاحتياجات الحقيقة حسب أولوياتها.. كما يتعين أن يكون العلم في خدمة المجتمع بوجه عام قدر الإمكان.

* * *

ثانيا: موقف العلم من الدين

ونعني بالدين هنا: المسيحية بالدرجة الأولى واليهودية بالدرجة الثانية، لأن تاريخنا لم يعرف خصومة بين الإسلام والعلم، ولأن العلوم الحديثة نمت وازدهرت في الغرب، الذي تدين غالبيته بالمسيحية.

سلطان الكنيسة:

من المعلوم بالتواتر أن العلم الحديث قام في أوربا على أنقاض الاستبداد السياسي والفكري والاجتماعي الذي مارسته الكنيسة، التي كانت في العصور الوسطى تُعَيِّن الأباطرة وتخلعهم، كما كانت متحالفة مع الإقطاعيين الذين كانوا يستعبدون الفلاحين – استعبادًا فعليًا لا مجازيًا – ، فكان الإقطاعي يملك القرية بممتلكاتها وسكانها جميعًا.

كان بابا الكنيسة يعلن أنه دون الرب وفوق البشر (*)، فهو – في اعتقادهم – ممثل المسيح على الأرض، يحلل ويحرّم دون أن يعترض عليه مخلوق!! وكان البابا يحتكر حق تفسير «الكتاب المقدس». فهو (بادعاء البابا غريغوريوس السابع ١٠٧٣ – ١٠٨٥م) يستمد نفوذه من الله مباشرة – تعالى الله عما يفتري الظالمون –، ولذلك فإن البابا – كما أضاف غريغوريوس – لا يُسْأل عما يفعل!.

وبالإضافة إلى سيطرة البابا المطلقة على الأباطرة، فإنه كان يفرض على الناس أن يدفعوا إليه عُشْرَ أموالهم.

(*) هذا ما قاله البابا أنسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م)!

وبلغ طغيان الكنيسة ذروته في بيع صكوك الغفران، التي كانت تباع للمجرمين لـ« يغفر» البابا لهم خطاياهم صدق الله العظيم القائل: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿٣١﴾﴾[1] !!.

كان ثمن الغفران من خطيئة الزنى ١٥٠ من الدوقيات، وثمن الغفران لمن قتل اثنتين من بناته ٨٠٠ دوقي وهكذا.

وهبطت الوقاحة بالراهب « حنا تتزل» إلى أن قال – قاتله الله – : «إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها – يعني: الصدّيقة مريم والدة المسيح عليهما السلام! – فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل»!.

(لمعرفة المزيد عن فظائع الكنيسة في العصور الوسطى، انظر: رفعت وحسونة « معالم تاريخ العصور الوسطى» ص ١٣٧، ١٤٥، ١٤٨ + ر. هـ. مواري « لوثر والإصلاح الديني» ص ٧٤ + هربرت فيشر « أصول التاريخ الأوربي الحديث» ص ١٠٠ + « د. يحيى ود. طه» معالم التاريخ الأوربي الحديث ص ١٦٧ + ول ديورانت « قصة الحضارة» ٢٤ / ١٦ : نقلاً عن : عبد الله المشوخي « موقف الإسلام والكنيسة من العلم» ص ١٢٦ – ١٢٨، ١٥٢، ١٥٣).

جذور العداء

كان من الطبيعي جداً أن تناهض الكنيسة أي نهضة علمية أو فكرية تهدد استبدادها القائم على تحريف الدين وفرض نفسها وسيطًا بين الخلق وخالقهم، وعلى دعم الإقطاعيين المتجبرين!.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

ويضاف إلى طبيعة سلطان الكنيسة عامل آخر، يفسر عداوتها الضارية لأي استخدام صحيح للعقل الإنساني، ذلكم هو احتواء «الكتاب المقدس» المحرَّف على كثير من الأباطيل والخرافات التي يرفضها كل عاقل يستعمل عقله لا هواه، ناهيك عما تبناه رجال الدين النصارى آنذاك من معلومات خرافية فرضوا على الناس أن يؤمنوا بها إيمانهم بالأناجيل.

ومن الخرافات التي روجت لها الكنيسة أن الأرض عبارة عن معين منبسط تحيط به أربعة بحار، وأن النحل مخلوق من لحم الثور المتحلل والخنافس من لحم الحصان والجراد من البغال... وأما علاج مرض الطاعون الذي كانت الكنيسة تباركه فيتلخص في أن يغمض المريض عينيه! وكان الرهبان الذين يفرضون هذه التخاريف يفترون الكذب على الله – كعادتهم منذ قرون–، فيزعمون أن الله وأنبياءه وملائكته والحواريين متفقون على أن آراءهم – أي: آراء الرهبان الخرافية الجديدة – حق، وأن من أنكرها أو تشكك فيها، فسيتعرض لعذاب الله في اليوم الآخر...!!

وفي هذا الجو الخانق، كان كل شيء غير محسوس موضع اهتمام من الكنيسة، فتنسج حوله الخرافات والأساطير، ما عدا الطبيعيات!.

وكانت تزعم أن «الكتاب المقدس» يحتوي على جميع العلوم بتفاصيلها وأنه المصدر الوحيد للمعرفة (انظر: المشوخي – مرجع سابق ص ١٠٠، ١٠١، ١٢٤، ١٣٢ وما بعدها).

رد الفعل:

أدى هذا الظلم الكهنوتي الشامل، إلى استفزاز بعض العقلاء الذين ثبت أنهم تأثروا بالحضارة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية وأثناء الحروب الصليبية،

لاسيما بمبدأ المسؤولية الفردية في الإسلام، حيث لا وسطاء بين المسلم وربه، بالإضافة إلى الحرية الفكرية والمنهج التجريبي.

من هنا قامت حركات للإصلاح الديني معادية لهيمنة الكنيسة التي كانت قد بالغت في خصومتها للعلم والعلماء . . فأقامت محاكم التفتيش الإرهابية حيث لا يعلم المتهم ما هي تهمته قبل الجلسة، ولا يعرف الأدلة التي ستستخدم ضده، وزيادةً في ازدرائه وتحطيم معنوياته، كان المتهم الماثل أمام المحكمة، يخاطَب بضمير الغائب: ليقل لنا، لماذا لم يفعل كذا. . . إلخ (ج. برونوفسكي – ارتقاء الإنسان ص ١٦٠).

وقد أحرقت محاكم التفتيش ٣١ ألف شخص، وأنزلت عقوبات أقل من الإعدام بـ ٢٩٠ ألفًا، وهذه الأرقام لا تشمل فروع المحكمة الإسبانية في أمريكا الجنوبية ومالطا وصقلية وسردينيا وقرطاجنة وجزر الهند الغربية وأوران. . ومن أشهر العلماء الذين اضطهدتهم الكنيسة وحاكمتهم، عالِم الفلك الشهير « غاليليو » الذي توصل إلى أن الأرض تدور حول الشمس – وهذا عكس ما كانت الكنيسة تؤمن به! – وسُجِن غاليليو وعُذّب حتى اضطر إلى التراجع عن رأيه، وإلى أن يجثو أمام البابا طالبًا الغفران، كما حوكم كوبرنيكوس وأنقذه الموت المفاجئ من الإعدام على يد الكنيسة، لكن وفاته لم تنقذ اسمه من اللعنة ولا كتبه من الإحراق!، وعوقب إسحاق نيوتن لاكتشافه قانون الجاذبية الأرضية (المشوخي – مرجع سابق ص ١٣٩، ١٤٠).

ومن المضحك /المبكي أن بغي الكنيسة شمل محاكمة الحيوانات، استمراراً لمعتقدات وثنية إغريقية ورومانية!! (السباعي – من روائع حضارتنا ص ١١٦).

نحو الإلحاد:

إن مجمل الجور الذي كانت الكنيسة تمارسه، أدى إلى الإطاحة بسلطتها السياسية من خلال ثورات اجتماعية – سياسية، فتم فصل الدين عن السلطة، كما أزيح استبداد الكنيسة بالعلم والعلماء.

من هنا اتجه العلم في الغرب – كردّ فعل – وبتأثير الفلسفات الثائرة، نحو رفض الدين «المسيحي طبعًا» .. وخصوصًا بعد ما ثبت بالبحث العلمي أن «الكتاب المقدس» ليس هو نص الوحي الإلهي، إذ لم يكتبه شهود عيان في حياة المسيح (عليه الصلاة والسلام)، وإنما تمت صياغة الأناجيل في أزمنة متأخرة بلغت بالنسبة إلى البعض ٣٠٠ سنة!! والأمر نفسه تكرر بخصوص كتب اليهود الدينية (وبعضها يضمه المسيحيون إلى كتابهم المقدس تحت مسمى «العهد القديم») (انظر: د. موريس بوكاي «ما أصل الإنسان» – ص ٢٠ ، ص ١٥٠ – ١٥٥ .. وله أيضًا «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» ص ١٣، ص ٢٨٤ وما بعدها).

وكلما أنجز العلم الحديث إنجازاً جديداً، ازداد عداوة للدين المسيحي، لأن معظم الحقائق تتعارض مع نصوص «الكتاب المقدس»، ناهيك عن التأثير السلبي للعلوم الإنسانية التي انطلقت بدون ضوابط، تشطر الإنسان وكل نظرية تتبنى شطراً وتضخمه وتلغي الأجزاء الأخرى من الإنسان!.

ولعل تقدير عُمْر الإنسان على الأرض هو أكثر الأمثلة وضوحًا على التناقض الشديد بين كثير من معلومات الكتب الدينية المسيحية والحقائق العلمية الراسخة حديثًا..

فالتوراة تقول: إن الإنسان ظهر على وجه الأرض منذ ٥٧٥١ سنة (محسوبة

حتى أواخر عام ١٩٩٠م)، في حين عثر علماء الآثار على آثار بشرية ترجع إلى الألف العاشرة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام)، أي أن عمر الإنسان على الأرض هو ١٢ ألف سنة (في الأقل لأنه لا يوجد دليل قطعي ولا ظني على أن الآثار المذكورة هي أقدم آثار خلّفها الإنسان، بل هي أقدم آثار عثرنا عليها!).

(انظر: بوكاي – ما أصل الإنسان ص ٢٢، وله أيضًا: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ١٢).

ومن ذلك النص الكنسي على ثبات الأرض، مع أن من المقطوع به اليوم هو أنها تدور حول نفسها كل ٢٤ ساعة وحول الشمس كل ٣٦٥,٢٥ يومًا! وكذلك ادعاء أن الكواكب سبع فقط... إلخ.

عبادة المادة:

إن التطرف العلمي الغربي في رفض الدين المسيحي جملةً لم يكن مفاجئًا... لما أشرنا إليه من تناقضات الكتب الدينية للقوم، وما احتشد فيها من معلومات خرافية تدحضها الحقائق العلمية، بالإضافة إلى الحقد المضطرم على طغيان الكنيسة من قبل.

ولما انهار التفسير الكنسي القائم على تلك الكتب، استيقظ الإرث الوثني المادي الإباحي الموروث عن الإغريق والرومان – وهو إرث سبق له أن شوّه المسيحية الموحِّدة فور وصولها إلى أوربا، وابتدع فيها سلطانًا للكنيسة لم تعرفه من قبل في منشئها بفلسطين –.

وإلى جوار التهتك الأخلاقي الذي يرجع بجذوره إلى الإغريق والرومان أيضًا، سار العلم بلا هداية، فبلغ مرحلة الإلحاد الفكري الذي يبحث عن مسوغات ذات رداء علمي زائف. وفشا إنكار وجود الخالق – سبحانه وتعالى – في كثير من

الأوساط العلمية، التي أخذت تفسر نشوء الكون بالمصادفة العمياء (هكذا ينتهي الهوى بالإنسان إلى نقض العقل مع أنه يزعم التزامه أحكام العقل!!).. وطغت النظريات المادية – وأصلها إغريقي قديم يعود إلى هيرقليطس – فأصبح الإنسان عبداً للحتمية المادية – عند ماركس – وعبداً لغريزته الجنيسية – عند فرويد – وعبداً لغريزة القطيع – عند دوركايم –!!! وعلى العموم فقد سادت الأفكار الجبرية اللاعقلانية، مع انتكاس بكرامة الإنسان من خلال اختلاق علاقة عضوية – بل : وسلوكية – لا أساس لها بينه وبين الحيوان (لامارك وداروين والداروينية الاجتماعية...إلخ).

وبالغ الأوربيون في تقدير العلم، حتى إنهم اعتبروه معصوماً من الخطأ (على الرغم من أنه إنتاج بشر غير معصومين في اعتقادنا، وإنتاج بشر أنصاف بهائهم في اعتقادهم!!).

للعلم حدود:

بعد أن أخذت موجة الشطط مداها، وهدأت مشاعر السخط وردود الأفعال، أعادت الأوساط العلمية النظر في كثير من القناعات التي تشبث بها – بصفة خاصة – كثير من علماء القرن التاسع عشر، قرن الجبرية المادية والمصادفة العمياء..

ومن أبرز العناصر التي أدت إلى هذه المراجعة العلمية للذات، اكتشاف عدد من كبار العلماء أن كثيراً مما أعطي صفة العلم في القرون الثلاثة الماضية – والقرن التاسع عشر خصوصاً –، لم يكن – في أحسن الحالات – سوى افتراضات، أو نظريات تجمع بين افتراضات عدة، لم تثبت بالتجربة.. وأن إسباغ صفة العلم عليها تم لأسباب عقائدية «إيديولوجية» بحتة في بعض الأحيان، ونتيجة تشابك العوامل العقائدية وجزئيات علمية محدودة في أحيان أخرى.

١ ـ معرفة لا يقين:

يقول البروفيسور «برونوفسكي»: «إن أحد أهداف العلوم الطبيعية إعطاء صورة دقيقة عن العالَم المادي، وإحدى منجزات الفيزياء في القرن العشرين هي البرهان على أن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه»!.

ويضيف هذا الباحث الموسوعي أن الذين يزعمون «خلاف ذلك – سواء أكانوا علماء أو عقائديين – يفتحون الباب على المأساة فكل المعلومات منقوصة، غير كاملة. ويجب التعامل معها وتناولها بتواضع. تلك هي الحال البشرية، وذلك هو ما تقوله فيزياء الكم، وأعني ذلك حرفيًا»!! (برونوفسكي – ارتقاء الإنسان ص ٢٧٣، ٢٧٤).

ويُعَرِّج برونوفسكي (ص ٢٨٣ وما بعدها) على نتائج بحوث «هيز نبرغ» التي كان من أهم نتائجها مبدأ الاحتمالية «أو: عدم الدقة» الذي لا يطعن في التأكد العلمي لكن يقرن به شيئًا لابد منه من عدم الدقة. ويسخر الباحث من تزامن ظهور مبدأ عدم الدقة العلمي، مع صعود نجم هتلر وما حمله من يقين مرعب، بعد أن نضج استثمار بحوث بلومنباخ التشريحية لتلفيق نظرية فاسدة عن تقسيم الإنسانية عرقيًا، حيث وُضِع العرق الجرماني فوق الجميع!!.

وكانت قوانين «نيوتن» حول الجاذبية قد لقيت صدمة عنيفة بواسطة النظرية النسبية التي وضعها «آينشتاين» وعلى يد «ماكس بلانك» من خلال نظريته في الكم.

مجمل هذه الكشوف العلمية وضع حداً نهائيًا للنظريات المادية العقائدية (اللاعلمية) وحتمياتها، إذ كانت الكشوف الجديدة – على حد قول «رونالد

سترومبرج» -: «بمثابة تذكير مزعج بأن للعلم حدوداً لا تستطيع المعرفة البشرية أن تتجاوزها البتة» (سترومبرج - تاريخ الفكر الأوربي الحديث ٤/١٠٦، ١٠٧).

ونتج عن التدمير الثوري للصورة النيوتونية للعالم شيء من التواضع واعتراف العلم بوجود ألغاز غامضة في الكون، بدلاً من حديث العلماء الجازم في القرن الماضي عن تقدم العلم نحو المعرفة المطلقة والسيطرة الكاملة.. وبات من المفهوم إدراك محدودية حواس الإنسان وعجزها عن إدراك الحقيقة الكونية بأكملها، فالعقل المستخدم للتجاريد الرياضية ولأدوات أخرى، يستطيع أن يسبر أغوار الطبيعة بغية الحصول على فوائد عملية، أما إذا كنا نعني بـ«الفهم» صورة لكل شيء، فهذا أمر مستعصٍ علينا، وتظل ملامسة الحدس أو الخيال عابرة غير كاملة.

وربما عرف الإنسان قدره نتيجة العلم الجديد، من أنه يتمتع بمواهب رائعة لكنه ليس إلهاً.. والميدان الفسيح الغامض والمستعصي على الفهم، أصبح مفتوحاً أمام الدين (المرجع السابق - ٤/١٠٩).

هذه الثورة العلمية على مفاهيم القرن الماضي، لم تكن ناجمة عن مواقف عقائدية «إيديولوجية» ولا سياسية، وذلك على النقيض من مادية القرن التاسع عشر التي ثبت أنها كانت عقائد مسبقة وأحكاماً جاهزة فرضت على العلم مفاهيم غير صحيحة.

وليس أدل على ذلك من أن الملحدين في أوساط العلماء أقروا بتلك النتائج، ومن أشهر هؤلاء العالِم الرياضي والفيلسوف البريطاني الملحد «برتراندراسل»، الذي اعترف بأن معلومات الإنسان العلمية لم تعد يقينية تماماً.. وإن كان «راسل» اللاأدري إلى حد مقرف، يتجاوز لا أدريته إلى الجزم بإلحاده على الرغم من تغير هوية العلم ومنحاه في هذه القضية!.

٢ ـ الخطأ الحتمي:

أسفرت الثورة العلمية الجديدة عن نسف الحتميات الجائرة التي كانت موضع تقدير معظم علماء القرن التاسع عشر الميلادي، وظهرت محلها حتمية جديدة هي حتمية الخطأ العلمي، باعتباره إنجازاً بشريًا يظل يخطئ ثم يصحح خطأه ليرتكب خطأ جديداً يقوّمه وهكذا!!.. والحاذق من العلماء ليس من ينفي وجود الخطأ أو احتمال وقوعه، وإنما من يسعى ليحد من حصوله (هذا ما يؤكده لويس دي بروجلي – انظر: د. يحيى هاشم – مجلة الأزهر – ربيع الأول ١٤٠٠ هـ – فبراير (شباط) ١٩٨٠م – ص ٢٥٩).

من تلك الأخطاء التي يمكن تكرر حدوثها في المسار العلمي:

(أ) **أخطاء التعميم**: فالتعميم برغم الملاحظة العلمية الدقيقة والتجربة، يظل عرضة لخطأ الاستنتاج من الجزئيات وإطلاق النتائج العامة.

والتعميم في العلم نوعان أحدهما مطَّرِد في الجنس كله أو الفئة كلها، والثاني إحصائي، والخطأ أكثر شيوعًا في النوع الثاني مما في الأول، وليس أدل على ذلك من النتائج المضللة التي تتوصل إليها استفتاءات الرأي العام التي تجريها المعاهد المتخصصة.

(ب) **أخطاء التنظير**: تلعب النظرية دوراً حيويًا في تقدم العلم، لكنها تصبح عائقاً أمامه في بعض الأحيان، لأن العلماء يتمسكون بأي نظرية – حتى لو ظهر بطلانها – مالم يظهر بديل لها يملأ الفراغ!.

(ج) **أخطاء التطبيق**: إذ حتى لو اتفق عالمان على نظرية علمية فإنهما كما يقول «جون كيمني» سيختلفان على الإمكانات العملية لنتائجها

مستقبلاً، نظراً للآراء المتباينة حول الحقائق والشروط اللازمة لتطبيق النظرية تطبيقًا صحيحًا!.

(د) **أخطاء الاعتقاد العلمي**: حيث يتمسك العالِم بنظريته على الرغم من اعترافه بأن وضعها الراهن يصطدم بالحقائق، وذلك لاعتقاده بأن نظريته صحيحة وأنه في الطريق إلى حل معضلاتها!! وقد يكون إصرار العالم على موقفه صحيحاً أحيانًا، لكن نظريته قبل أن تحل مشكلاتها تظل – في نظر العلم – خطأ.

(هـ) **أخطاء الخداع الحسي**: وهي أخطاء تقع بالرغم من الاحتياطات العلمية الشديدة لتجنبها.

(و) **الأخطاء العفوية**: وأشهر أمثلتها فضيحة أشعة (إنْ) التي زعم العالِم الفرنسي الشهير بلوندلوت أنه اكتشفها عام ١٩٠٢م، غير أن الفيزيائيين الأمريكيين لما حاولوا الحصول على هذه الأشعة وفقًا لنظرية بلوندلوت وشروطه العلمية، كانت النتيجة سلبية.. وأخيراً زار الفيزيائي الأمريكي الشهير د. هـ. وود معامل بلوندلوت بنفسه لحضور تجارب المكتشف.. واتضح أثناء التجارب أن بلوندلوت وقع في أخطاء عفوية قادته إلى نتائج غير سليمة .. وماتت أشعة (إنْ) أو لنقل :ماتت فكرتها – بالأصح–!.

(ز) **الأخطاء العمدية**: من مهازل التغريبيين أنهم يهاجمون عصمة الأنبياء الذين عصمهم الله – عز وجل – من الخطأ والنسيان والتحريف في تبليغ رسالاته – سبحانه – لكن عبيد الغرب يضفون هالة من القداسة والعصمة على كل باحث علمي .. متجاهلين أن العلماء بشر فيهم المخلص لعلمه،

وفيهم عاشق الظهور والشهرة بأي ثمن، وفيهم من هو معدوم الضمير، وبعضهم كان خائناً لبلاده، وبعضهم عمل على ابتكار أساليب وحشية لتعذيب السجناء السياسيين..!!!.

وإذا كان وجود مثل هذه الأصناف ممكناً في أرقى مجتمع إسلامي، فإن وجودهم يكثر – دون ريب – في المجتمعات التي تعبد المادة وتؤله الحياة الدنيا.

ونكتفي بمثال واحد لشيوعه، هو الفضيحة الكبرى لعالِم النفس البريطاني «سيرل بيرت» الذي توفي عام ١٩٧١م عن عمر ناهز الثامنة والثمانين. غادر بيرت دنيانا وهو يتمتع بمكانة علمية يندر مثيلها – كما يقول د. أحمد أبو زيد في مجلة «عالم الفكر» الكويتية – أبريل/ يونيو ١٩٧٧م ص ٢٣٣ وما بعدها– . وكانت آراء بيرت بمثابة حجر الزاوية في بناء نظرية متماسكة عن دور الوراثة في الذكاء. ثم اتضح فيما بعد أنه كان يزيف النتائج بل إنه تحدث عن تجارب ليس لها وجود، ونشر دراسات لمؤلفين وباحثين لا وجود لهم، وكان يملأ تلك الدراسات بالمديح على شخصه وعلمه!! لذلك فإنه – يقول د. أبو زيد –: «يجب أن تحتل قصص التزييف العلمي مكاناً في تاريخ العلم إلى جانب الجهود الفاشلة من جانب والإنجازات الناجحة من جانب آخر سواء بسواء».

(انظر: سلسلة مقالات «في مواجهة الإلحاد المعاصر» للدكتور يحيى هاشم – نشرتها مجلة «الأزهر» خلال عامي ١٣٩٩/ ١٤٠٠هـ).

(حـ) **الأخطاء العقائدية «الإيديولوجية»**: وهي شديدة الخطورة، سواء أكان مصدرها التزييف المتعمد لنتائج العلم أو الانجراف العفوي من العالِم لنصرة

اعتقاده دون أن يكون قاصداً إلى ذلك عن وعي.. ويحدث التلبيس العفوي هذا – في الغالب – إذا كان موضوع البحث العلمي هو نفسه موضع اعتقاد فكري سابق لدى الباحث.. وتتضاعف الخطورة في هذا النوع من الخطأ بتأثير عاملين إضافيين هما: الابتسار الإعلامي القائم على الإثارة، والتعصب في أوساط كثير من العلماء.. وعلى سبيل المثال، فإن بريطانيا أصدرت طابعًا بريديًا عام ١٩٨٢م بمناسبة مرور قرن على وفاة تشارلز دارون صاحب نظرية التطور والاصطفاء الطبيعي، وقد حمل الطابع صورة مخلوقات تشكل معضلة لنظرية دارون.. هذا في حين يتعصب العلماء الأمريكان لأفكار دارون إلى درجة رفضهم أي نقاش حولها (انظر: د. بوكاي – «ما أصل الإنسان» ص ٥٣، ٥٤، وكذلك: وحيد الدين خان «العلم يتحدى» ص ٦٦، ٦٧)، علماً بأن «ب. ب جراسيه» رئيس قسم دراسات التطور لمدة ٣٠ عاماً في جامعة السوربون بفرنسا، ألّف كتابه «الإنسان متهماً» ينتقد فيه الداروينية الحديثة بشدة. ويدافع الشيوعيون عن نظرية دارون المليئة بالثقوب، على الرغم من اعتمادها في الميدان الاجتماعي على مبادئ «مالتوس» الرأسمالية اللا إنسانية التي تضع حلولاً غير أخلاقية للفقر (الحروب – المجاعات – الكوارث...!) (د. بوكاي – المرجع السابق ص ١٨، ٤٧، ١١٧، ١٣٩).

كما أن كثيراً من العلماء الذين يرفضون مجرد التفكير في مسائل الدين، يخضعون لإيديولوجيات مادية تجريدية – غير علمية – على حساب حقائق الطبيعة التي كشف العلم عنها (المرجع السابق ص ٢١٤).

على أن العلماء – عموماً – قد أصبحوا أكثر عقلانية واتزاناً، بخلاف فلاسفة العلم المتعصبين.. وفي ذلك يقول «هانز ريشنباخ»: من غرائب الأمور أن الذين

يرقبون البحث العلمي من الخارج يكون لديهم في كثير من الأحيان ثقة في نتائج هذا البحث تفوق ثقة أولئك الذين يسهمون في تقدمه.. فالعالِم – يضيف ريشنباخ – لا يزعم أبداً أنه اهتدى إلى الحقيقة النهائية، أما فيلسوف العلم فهو معرَّض لخطر الثقة المطلقة بنتائج العلم.

* * *

والملحوظات السابقة المقررة حالياً في الأوساط العلمية المحترمة، تبقى في إطارها لا تتعداه.. فهي لا تغض من قيمة العلم ولا تلغي الثقة به، لكنها تضع حدوداً وضوابط للمشتطين الذين يقلدون أوربا في كل شيء، حتى لما دخلت في جحور الإلحاد، فآمنت بالعلم – وما يدخل فيه وهو ليس علماً – آمنت به ديناً بدلاً من دينها!! فكما نرفض هذا الغلو الذي يعمم تجربة أوربا على المسلمين الذين يختلفون عنها في العقيدة والظروف، فإننا نأبى أن يضخم بعض الجامدين من أخطاء العلم ليخلصوا إلى رفضه!! فذلك مسلك غير إسلامي ناهيك عما فيه من سد أبواب ضرورية وحيوية لحاضرنا ومستقبلنا.

إن العلم البشري كله هو سلسلة متصلة من التجارب يكتنفها الخطأ، لكنها تسعى إلى الصواب والتصحيح باستمرار.. وتلك سنّة الله في خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾.

ثالثاً: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

اشتط في مسألة الإعجاز العلمي فريقان متطرفان، اتجه كل منهما اتجاهًا نقيض الآخر.. فريق يجحد وجود الإعجاز العلمي نهائياً.

وفريق يلوي أعناق النصوص ويتعسف في التأويل، لكي يفرض صلة من أي نوع بين النظريات العلمية والنصوص القرآنية والنبوية.

والفريق الأول يضم جناحين لا يلتقيان إلا في إنكار الإعجاز العلمي، جناح لاديني يرمي إلى تقويض الإسلام بالعلم، فيفتري على ديننا – مثل «الأمين» – أنه مناقض لنواميس العقل، وإذا كان أكثر دهاء – مثل طه حسين – عمم تجربة أوربا على التاريخ الإنساني كله، فزعم أن الدين والعلم عدوان لدودان لأنهما مختلفان في كل شيء: في طبيعتهما وفي وسائلهما..

أما الجناح الثاني في هذا الفريق، فيخشى الإساءة إلى القرآن والسنة بتحميلهما ما لا يحتملان لاسيما أن هذا الجناح يحمل أفكاراً مشوشة وغير دقيقة عن العلم الحديث، من أنه مؤيد للكفر والإلحاد..

فأما الجناح التغريبي الذي يبذل كل طاقاته، ليفتعل خصومة بين الإسلام والعلم، فإني أتحداه أن يأتي بدليل على أباطيله سواء عن تعارض حقائق العلم مع نصوص القرآن والسنة، أو من تاريخنا! وليست الخصومة بين الدين والعلم قائمة منذ فجر التاريخ – بحسب ادعاء طه حسين – وإنما هي ظرف أوربي – مسيحي خاص، ولا يمكن تفسير تعميمه إلا بالتلبيس المقصود كيداً للإسلام ضمناً، أو بالانبهار الأعمى في إسار عقدة «المركزية الأوربية»، حيث يصور الغرب نفسه مركزاً أزلياً –

أبدياً للعالمَ في التاريخ وفي الجغرافيا.. فإذا اتضح أن دين غالبية الغربيين يحتوي على خرافات، فإنهم يتحدثون بإطلاق عن عداوة الدين – كل دين – للعلم – كل علم –!!.

وإذا كانت العصور الوسطى مظلمة في أوربا، عمموها بقولهم: العصور الوسطى المظلمة، دون أن يحددوها بأوربا! مع أنها كانت عصر حضارة عربية إسلامية رائعة!! والشرق الأوسط والشرق الأقصى، كلها مصطلحات استعمارية تدخل في إطار عقدة «المركزية الأوربية»، فهذا شرق أوسط بالنسبة إلى أوربا، وذاك شرق أقصى بالنسبة إليها... ومع أن عقولنا تؤكد لنا الصلة الحميمة بين صحيح المنقول وصريح المعقول، بين الإسلام وحقائق العلم، فإنه إذا لم يكن مفر من أن نلغي عقولنا على غرار التغريبيين، فإننا نقبل شهادة باحث رصين مثل الدكتور موريس بوكاي، ولا نرتضي شهادة هؤلاء.. وذلك لعدة أسباب وجيهة:

١ ـ أنه مؤهل علمياً فهو متخصص في الطب، وباحث محترم في علم الحيوية «البيولوجيا»، أما هم فما تلقوا من الغرب سوى «إيديولوجياته».

٢ ـ أن شهادته تعتمد على ما تحقق منه بنفسه على صعيد الكتب الدينية وعلى صعيد المعطيات العلمية.. أما الآخرون فهم مجرد ناقلين، وكثيراً ما يخونون حتى أمانة النقل، كما قدمنا عشرات البراهين من قبل!.

٣ ـ أن بوكاي بدأ أبحاثه من أرضية مجردة محايدة، وإذا كان هنالك من شك في نزاهته وحياده، فهو شك ليس لصالح الإسلام بالذات.. لا أقول هذا استنتاجاً فحسب، فها هو يصرح فيقول: لقد قضيت شطراً كبيراً من حياتي – كبقية الغربيين – وأنا أحمل عن الإسلام إرث تربية تقوم على سوء فهم الإسلام والقرآن (د. بوكاي «ما أصل الإنسان» ص ١٧٧).

لكن إخلاصه للعلم والحق دفعه إلى تعلم اللغة العربية في مرحلة تالية، ليطلع على النصوص القرآنية مباشرة، دون وساطة من ترجمات معاني القرآن، وهي ترجمات ينقدها لما لمس فيها من أخطاء وتحريفات اكتشفها بعد تعلمه لغة القرآن الكريم.

خلاصة شهادة بوكاي:

يطرح بوكاي الفرق بين حالنا وحال الغرب إزاء علاقة الدين بالعلم، فيوجزها بقوله: «في حين كان العالَم الغربي على غير وفاق مع عقيدته، لم يحدث مثل هذا الجدل والتعارض في الإسلام، وتكمن أسباب ذلك في التاريخ الإسلامي بشكل عميق بل في أصول الإسلام حقاً» (من كتابه «ما أصل الإنسان» ص ٢٣٧).

وإذ يوضح الرجل بالأدلة العلمية والتاريخية التعارض بين الكتب المقدسة للنصارى واليهود من جهة، والعلم الحديث من جهة أخرى، يستشهد بأدلة من رجال دين مسيحيين كبار، اعترفوا بهذا التعارض مضطرين نتيجة الضربات التي تلقتها كتبهم من قبل العلوم الحديثة.

ومن ذلك تراجعهم عن نسبة «الكتاب المقدس» إلى الله – سبحانه وتعالى – وإقرارهم بأن الأخطاء مرجعها إلى أن الذين كتبوا هذا الكتاب كتبوه بلغة زمانهم وقد تأثروا بمفاهيم بيئاتهم! بل إن الرجل ينقل وثيقة رسمية صادرة عن الفاتيكان تؤكد وجود أخطاء في «العهد القديم» («ما أصل الإنسان» ص ١٦، ٢٢، ١٥٠ وما بعدها).

وسبق للدكتور بوكاي أن أذهل الأكاديمية الطبية الفرنسية بتاريخ ٩/١١/١٩٧٦م إذ عرض أمام أساطين الأطباء الفرنسيين الآيات القرآنية التي سبقت

الاكتشافات العلمية الحديثة في مجال الظواهر الطبيعية، وخصوصاً في علم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة (المرجع السابق ص ٢١).

وقد عرض بوكاي لكل من نصوص التوراة والإنجيل والقرآن التي تتحدث عن ظواهر طبيعية كالنظام الشمسي وتناسل الإنسان وخلقه... أو قضايا تاريخية كطوفان نوح (عليه السلام)، ودرس نصوص كل كتاب على حدة مع مقارنتها بقطعيات العقل وحقائق العلم والتاريخ، وانتهى إلى كشف تناقضات صارخة في التوراة والأناجيل، بالإضافة إلى اصطدامها بأكثر المعطيات العلمية رسوخاً في عصرنا، بخلاف القرآن الذي لم يجد فيه أي تأييد للأساطير أو الخرافات التي كانت سائدة في عصر نزوله.. ويقول : وهذه ليست الحال بالنسبة إلى التوراة التي عبر مؤلفوها عن أنفسهم بلغات زمنهم. ويلاحظ د. بوكاي أن القرآن يحفل بموضوعات كثيرة ذات سمة علمية، وهي موضوعات نادرة في سفر التكوين في التوراة، ومع هذه الندرة فإن ما جاء في سفر التكوين يتناقض مع حقائق العلم الحديث التي ثبتت بالتجربة والبرهان.. (انظر كتابيه : « التوراة والإنجيل والقرآن والعلم » ص ١١ – ١٣، ٢٨٤ ومابعدها – و« ما أصل الإنسان » – ص ١٧٩).

ليست جديدة :

قد يفاجأ بعض القراء الكرام، إذا علموا أن الشطط لدى بعض المسلمين في تحميل نصوصه ما لا تحتمل زاعمين أن ذلك من إعجاز القرآن، هو شطط قديم عمره ستة قرون – بحسب اطلاعي–!!.

فها هو الإمام الشاطبي – المتوفى سنة ٧٩٠هـ– ينسب إلى بعض أهل العلوم الطبيعية في زمانه تكلفهم الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات القرآن

وأحاديث عن النبي ﷺ (الشاطبي – الموافقات ١ / ٥٤، و٢ / ٦٩ – ٧٣). فأهل العدد – أي الحساب – استدلوا بقوله – تعالى –: ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾[١]، وأهل الهندسة بقوله – سبحانه –: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (١٧) ﴾[٢]. إلخ.

وقد وقع الشيخ محمد عبده في عصرنا الحديث في مطب تحميل النصوص القرآنية ما لا تحتمل، ففسر السماوات السبع الواردة في القرآن، على أنها الكواكب السبعة التي تدور حول الشمس! ولو تروى الرجل لما قال ما قال، لأن الكواكب السبعة على أيام الشيخ كانت تضم الأرض معها فلم تكن الأرض في مقابل السماوات!! ناهيك عن كثرة النجوم والكواكب التي يشاهدها الإنسان في قبة السماء، فكيف تقصر السماوات السبع على المجموعة الشمسية التي لا تعدو أن تكون نقطة صغيرة في محيط كوني عظيم لا يعلم سعة مداه إلا خالقه – تبارك وتعالى –.

ومع ذلك فقد اكتُشفت ثلاثة كواكب أخرى تدور حول الشمس عام ١٩٣٠م – بعد وفاة الشيخ بربع قرن – هي: أورانوس ونبتون وبلوتو!! أي صارت الكواكب عشرة فهل تصبح السماوات عشراً؟!!.

وممن بالغوا في هذا الاتجاه الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره للقرآن، وتلاه عدد من المؤلفين لعل الأستاذ عبد الرزاق نوفل – رحمه الله – هو أكثرهم شهرةً وأغزرهم إنتاجاً.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٣.
(٢) سورة الرعد: الآية ١٧.

ومن مبالغاته، تفسيره العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾﴾[١]، فَسَّرها بقوله: «إن النفس هي البروتون، وإن زوجها هو الألكترون، وهما العنصران اللذان تتكون منهما الذرة»!!! (نوفل «القرآن والعلم الحديث» ص ١٣٦).

ومن الأخطاء العجيبة التي وقع فيها كثير من السائرين في هذا الاتجاه، ادعاؤهم أن القرآن نص على أن الإنسان سيغزو القمر، في قوله – سبحانه –: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[٢].

فقد فاتهم أن الآية تنص صراحة على استحالة نفاذ الجن والإنس من أقطار السموات والأرض، فهي لا تشير إلى غزو القمر.. لكنها لا تنفيه لأن القمر جارنا القريب جداً، وليس من أقطار السموات البعيدة التي تفصلها عنا ملايين السنين الضوئية...

* * *

شبهة المانعين

لاريب في أن هذا التطرف – وإن كان مبعثه حسن النية – غير جائز، لأنه

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.
(٢) سورة الرحمن: الآيات ٣٣ – ٣٥.

يتعسف في التأويل خارج ما تحمله الألفاظ من دلالات لغوية معروفة.. فالزوجان هما الذكر والأنثى أو آدم عليه السلام وحواء تحديداً، وليسا عناصر الذرة!!

هذا التطرف استدعى تطرفًا موازيًا، فعمد بعض أهل العلم إلى منع الحديث عن الإعجاز العلمي نهائيًا، وكان من أهم أدلتهم:

- أن الإعجاز القرآني يقتصر على الإعجاز البياني من حيث بلاغة نظمه، وأن هذا ما فهمه العرب زمن نزول القرآن من تحدي القرآن لهم بأن يأتوا بمثله.
- أن النظريات العلمية متقلبة فإذا ربطنا بينها وبين القرآن، فإننا نعرّض كلام الله – عز وجل – إلى الأهواء والشكوك معًا.
- أن الصحابة فهموا الآيات القرآنية التي تتحدث عن ظواهر كونية في عصرهم، ولذلك فإن أي تفسير يقرنها بالمفاهيم العلمية الحديثة يعني أننا نفهم القرآن أكثر منهم!.

فأما حصر الإعجاز في مجال البلاغة فليس هناك من دليل شرعي عليه. وذلك فضلاً عن أن هذا الحصر منقوض بأمرين هما:

١ ـ أن التحدي يشمل الجن والإنس **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾** (١).

وليس لدينا دليل على أن لغة الجن هي العربية، وأما الاحتجاج بما ورد في سورة «الجن» من استماع نفر من منهم للقرآن، فليس قاطعًا في الدلالة على ذلك، لأن الآيات تشير إلى «نفر من الجن» وليس إلى الجن كلهم!.

ناهيك عن أن الإنس لا يعرفون – جميعًا – اللغة العربية.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

كما أن الإعجاز شمل في العهد النبوي نفسه أحداثًا أوضح القرآن أنها ستقع، وقد وقعت فعلاً كانتصار الروم على الفرس الوارد في الآيات الأولى من سورة الروم، ومثل هلاك أبي لهب وهو على كفره المنصوص عليه في سورة المسد!!.

٢ ـ في عصرنا لم تعد البلاغة سمة أساسًا للعرب، فمعظم العرب اليوم يتحدثون العامية!!.

وأما أن النظريات العلمية عرضةٌ للتبدل دائمًا، فهذا أمر صحيح.. لكن الإعجاز العلمي الحقيقي في القرآن هو الذي يتصل بالحقائق العلمية الثابتة، فليس كل ما في العلم متغيراً. وإذا أخطأ بعض الناس ففسروا آيات القرآن بنظريات أو فرضيات أو تخمينات علمية لم تستقر بعد، فهذا ما نشترك في رفضه ، لكن رفض الخطأ لا يبيح رفض الصواب.. وقد أخطا مفسرون في تفسير بعض الآيات قبل أن يظهر العلم الحديث، فليس الخطأ قاصراً على المفسرين بالعلم العصري.

إن الضوابط المقررة لتفسير القرآن تشمل الجميع، ويمكن إضافة احتياطات خاصة بالقضايا العلمية الحديثة، لا ترفض التقاء قَطْعِيِّها بنصوص القرآن والسنة، ولا تأتي بفرضياتها ونظرياتها غير الثابتة لتفسير هذه النصوص.

وأما تفاسير الصحابة فليس هناك أي تفسير لصحابي أو أكثر يشمل جميع آيات القرآن – فيما أعلم –.

وتفسير الصحابي الذي تثبت نسبته إليه بخصوص آية أو أكثر، ينبغي تقديره، لكنه ليس معصومًا إذا لم يرفع ما فسره إلى النبي ﷺ.

كما أن هناك لبسًا عند البعض بين الإعجاز والتفسير، فليس الإعجاز العلمي

مدعاة لتغيير التفسير.. إن الله – عزوجل – يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾﴾ [١] .. ففي هذه الآية إعجاز علمي، لأن العلم البشري لم يتوصل إلى هذه الحقيقة إلا في العصر الحديث، وهو ما يؤكد – لغير المسلم – أن هذا النص ليس من صنع بشر، وإنما هو وحي من الله..

فما الذي نزيده – هاهنا – على تفسير السلف للآية ؟! لا شيء، سوى دلالة الإعجاز.

* * *

إن الضابط الأساسي الذي أقترحه هو أن تكون الحقيقة العلمية المراد الإشارة إليها قطعية ثابتة، وأن يكون النص القرآني أو النبوي محتملاً لمعناها دون أي افتئات على اللغة، ولا تعسف في التأويل.

فإذا كانت المعطيات العلمية ما زالت في طور النظرية، فإن من واجب من يربطها بآية أو حديث أن يشير إلى ذلك صراحةً، وألاّ يجزم بأن ما قاله هو مراد الله – عز وجل – منها، وإنما يقدمه كوجه محتمل دون القطع به.

وينبغي التذكير دائماً بأن القرآن – في الأصل – هو كتاب هداية في العقيدة والتشريع والآداب، وما هو بكتاب للفيزياء أو الكيمياء أو الطبيعيات... ويكفي المسلم فخراً أنه يؤمن بدين، ليس فيه قطعية واحدة تتعارض مع قطعية علمية.. فالكون من خلق الله، والقرآن كلام الله، فكيف يتعارضان – عقلاً! – والمصدر واحد؟

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وإذا ظن البعض وجود تعارض، فلابد من أن تكون إحدى القضيتين – أو كل منهما – ظنية.

وقد أصاب الشيخ محمد عبده في قوله: إنه لا تناقض بين رسالة الوحي واستخدام العقل، ولا ينشأ اختلاف بينهما إلا بتحريف رسالة الوحي أو سوء استخدام العقل، فمصدر التحريف – في الحالين – هو الإنسان وليس طبيعة أي منهما..

إن بعض الحقائق العلمية التي أشير إليها في القرآن بمنتهى الوضوح، أذهلت بعض الباحثين المنصفين من غير المسلمين.. ومن ذلك دهشة المؤرخ «جبن» من تحقق انتصار الروم على الفرس في بضع سنين – كما قال الله في القرآن تماماً –!!.

وكذلك فرحة الفلكي البريطاني الشهير «السير جيمس جينز» الذي أعلن أن القرآن كتاب موحى به من عند الله، وذلك بعد أن سمع ترجمة لمعاني قوله – تعالى –: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾[1].

(انظر: وحيد الدين خان «الإسلام يتحدى» ص ١٨٧، ٢١١).

وما قول منكري الإعجاز العلمي، في قوله – تعالى –: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[2].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٧.
(٢) سورة النور: الآية ٤٠.

إذ إن أشهر عالِم متخصص في علوم البحار في زماننا وهو البروفسور الفرنسي «لاكوست»، يقول: إن الظلمات لا تكون إلا في المحيطات العميقة – تماماً كما جاء في الآية – ، وهذا ما لم يكن معروفًا قبل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م!!

فالبحار المحيطة بجزيرة العرب لا تعرف هذه الظلمة، هذا من حيث المكان.

ومن حيث الزمان فإن الظاهرة اكتشفت بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنًا!!.

وماذا يقولون في مراحل تكوّن الجنين، الواردة في قوله – تعالى –: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾**﴾[1]. ومن شاء معرفة انطباق الحقائق العلمية القطعية بهذا الخصوص على ما جاء في هذه الآيات وغيرها عن مراحل تخلق الجنين، فليرجع إلى (د. بوكاي «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» ص ٢٣٢ – ٢٣٤، وكتابه الآخر «ما أصل الإنسان» ص ٢٠٦ – ٢٠٧، والدكتور خالص جلبي «الطب محراب للإيمان» ٢ / ٢٤١ – ٢٥١.

* * *

(١) سورة المؤمنون :الآيات ١٢ - ١٤.

الإعجاز العلمي في السنة

حرصت على تقديم لمحة موجزة عن الإعجاز العلمي في السنة، لتكون رداً إيجابياً بليغاً على أكاذيب «الأمين» عن تعارض الإسلام – والسنة خصوصاً – مع نواميس العقل، وذلك بعد أن قدمت الرد السلبي القائم على تفنيد أباطيله حول السنة وأكذوبة اختلاق الأحاديث على النبي ﷺ.

وأنا مضطر إلى الإيجاز حرصاً على عدم تطويل الكتاب، لاسيماً أن كتابي ليس مختصاً بهذه المسائل لأتوسع فيها.

١ ـ مراحل تكوين الجنين:

وقد جاءت في القرآن الكريم متسلسلة – واكتشفت ذلك العلم الحديث في عصرنا فقط –.

وجاءت السنة فزادتها تفصيلاً بتحديد مدة كل مرحلة، وذلك في حديث طويل رواه عبد الله بن مسعود، ومنه قوله: «**حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن خَلْقَ أحدكم يُجْمَعُ في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك... الحديث** [رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي].

وهذا – كما يقول د. محمود دياب من كبار علماء الطب المعاصرين – ما عرفه العلم الحديث مؤخراً فحسب، بعد اكتشاف المجاهر الدقيقة وأنواع التصوير المتطورة بالأشعة، ويحيلنا الدكتور دياب – لكي نجد مطابقة العلم للتفصيل الوارد في السنة

عن مراحل تكوّن الجنين – إلى أحدث كتاب في علم الأجنة والحمل لـ« إيدن » و« هولاند » ص ٩٢!! (انظر: حواراً أجرته مجلة « اليمامة » مع الدكتور دياب في عددها ١٠٧٦ بتاريخ ١٩ /٣/ ١٤١٠ هـ الموافق ١٨ /١٠/ ١٩٨٩م).

٢ ـ الختان والإيدز:

الختان من السنة، وهو – كما جاء في الأحاديث – من خصال الفطرة المندوبة.

واليوم اكتشف الباحثون في جامعتي (أوتاوا) الكندية و(نيروبي) الكينية أن هناك علاقة قوية بين عدم الختان والإصابة بفيروس الإيدز، من خلال دراسة علمية شملت ٣٧ دولة!.

وتبين أن عدم الختان يزيد احتمال الإصابة بداء الإيدز الفتاك بمعدل ٥ – ٨ مرات!.

ومع أن القروح في الأجهزة التناسلية تزيد من احتمال الإصابة، فإن عدم الختان – كما جاء في الدراسة – ثبت أنه أشد خطراً منها، فالقروح تزيد احتمالات الإصابة ما بين ٤ – ٥ مرات!!.

وكان باحثون آخرون قد أثبتوا من قبل وجود ارتباط بين عدم الختان وبعض الأمراض الجنسية الأخرى.

(مجلة « الهلال » القاهرية – أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٩ ص ١٧٨، ١٧٩).

٣ ـ السواك:

الحث على السواك لتطهير الفم، ورد في السنة القولية والعملية .. فالسواك

مطهرة للفم مرضاة للرب، وقال (عليه الصلاة والسلام) ما معناه: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**».

وجاء العلم الحديث في السنوات العشرين الأخيرة ليكتشف أن في السواك فوائد مدهشة.. وجرت البحوث حوله في ألمانيا الغربية وسويسرا ثم في المملكة العربية السعودية ومصر.

ففي كلية الصيدلة بجامعة الملك سعود (في الرياض) أجريت دراسات وتجارب علمية، انتهت إلى أن السواك يحتوي على مواد فعالة في وقف نمو البكتريا والجراثيم الضارة، وفي تغذية اللثة وحمايتها من الالتهابات، وفي تبييض الأسنان!

(انظر حواراً مع الدكتور جابر سالم موسى – رئيس قسم العقاقير بكلية الصيدلة في جامعة الملك سعود، نشرته جريدة «الشرق الأوسط» – العدد ٣٢٤٨ بتاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٨٧م– ص ١٠).

وكان الباحثون قد استخلصوا المواد الموجودة في السواك، واختبروا تأثيرها على الميكروبات، فكانت النتائج محدودة والتأثير ضئيلاً.

ولذلك اتجه البحث إلى دراسة لعاب عدد من الأفراد، بعد أن استخدموا السواك لتنظيف الفم بالطريقة المعروفة، وكانت المفاجأة مثيرة إذ وجد العلماء في لعابهم مواد كيميائية جديدة كبيرة الفعالية، لكنها لم تكن موجودة في المركبات التي استخلصت من السواك من قبل.. وبعد سلسلة من الدراسات العلمية المتقدمة، اتضح أن هذه المواد الكيميائية الجديدة كانت موجودة – أصلاً – ضمن مكوّنات السواك، لكنها كانت متحدة كيميائيًا بمركبات أخرى أمسكت بها وقيدتها فلم تعمل، فلما اختلطت هذه المركبات بأنزيمات اللعاب حدثت تفاعلات كيميائية

حيوية، أدت إلى تحرر المادة الفعالة وإطلاقها في الفم لتطهيره من نحو ٩٧٪ من الميكروبات الضارة الموجودة فيه.. وتبقى المواد الفعالة بين نشاط وخمود بصورة دورية تتكرر كلما ازداد النشاط الميكروبي، وذلك لمدة تبلغ ١٢ ساعة (يلاحظ أن الوقت الفاصل بين أي فرضين من الصلوات الخمس في اليوم لا يصل إلى ١٢ ساعة أبداً!! مما يعني أن استعمال السواك عند كل صلاة الذي استحبه الرسول ﷺ، يكفل طهارة الفم باستمرار!!) (مجلة «اكتوبر» القاهرية – العدد ٦٢٧ بتاريخ ٣٠/١٠/١٩٨٨م – ص ٧٤).

* * *

obeikandl.com